آياته في خلقه

في باب المراسلة في هذا الجزء رسالة لكاتب يرى ان التعطيل أي انكار وجود الخالق لا يضر أحدا . ونحن نرى انه يأتي بأكبر الضرر ولكن مع انه لا يضر فهل هو معقول ؟

في إدارة المقتطف مطبعة أو آلة طباعة يديرها سير من الجلد تحركه الكهربائية فتسحب الورق من لفتين كبيرتين وتمرّه فوق حروف الطباعة بعد ان تحبرها وتطبعه من وجهيه وتقص منه صفحتين بعد صفحتين وتضم إحداهما داخل الاخرى وتلصقها بها وتطويها طولا وعرضا أربع طيات فيخرج المقطم منها مطبوعا مقصوصا ملصوقا مطويا . وهي تطبع كذلك اثني عشر الف نسخة في الساعة وتقصها وتلصقها وتطويها وتعدها تفعل ذلك كله من غير ان تساعدها يد أو يرشدها عقل . ولكن لقد اشتغلت عقول مئات من العلماء وعملت أيادي الوف من العمال مدة سنين كثيرة الى ان صارت هذه الآلة تعمل هذا العمل . وحتى الآن لا يخرج منها عدد واحد من المقطم مطبوعا الا بعد ان تشتغل العقول وتعمل الايادي في بلدان كثيرة في عمل الورق والحبر واستخراج الفحم الحجري وتوليد الكهربائية تاهيك بما يلزم للآلات الكهربائية من المواد والعمال وبما لزم لسبك الحديد والنحاس والرصاص والنيكل ونحو ذلك من المعادن التي دخلت في عمل آلة الطباعة وعمل الحروف وعمل الآلات الكهربائية . ولو احصينا جميع الذين اشتغلوا في عمل كل ما يلزم لطبع جزء واحد من المقطم لبلغ عددهم ألوفا وعشرات الالوف . فمن يقول ان المطبعة تطبع الجريدة لذاتها وينكر كل ما وراءها من العقول يخالف كل معقول .

يزرع القمح في هذا القطر في نحو مليون وربع مليون من الافدنة ومساحة الفدان أربعة آلاف ومئتي متر مربع ولا يقل عدد السنابل في المتر المربع من مئتي سنبلة . فعدد السنابل كلها التي تنبت كل سنة في القطر المصري وحده لا يقل عن مليون مليون سنبلة أي أكثر من عدد كل سكان الارض ست مئة ضعف . وفي

كل منبلة بل في كل حبة من حبوبها من الدقة في التركيب والحكمة في الوضع والصفات الموروثة والمكتسبة والاستعداد للنمو والتوليد مالا يوجد عشر معشاره في آلة الطباعة المشار اليها آنفا . فمن يستطيع ان ينكر وجود العقل الموجد لها والمتولي شئونها ولو بايجاد القوى التي تحرك كل دقيقة من دقائقها وكل ذرة من ذراتها

واذا استنرت بنور الكيمياء وحللت دقائق حبة القمح رأيت ان كل دقيقة منها مؤلفة من ملايين وملايين الملايين من الذرات الصغيرة وكلها متحركة ولا تحرك اجزاء آلة الطباعة وفيها من الصفات والخواص مايميز القمح الصعيدي عن البحيري والهندي عن البلدي . ثم اذا علمت ان مايزرع من القمح في هذا القطر ليس جزءا من مئة مما يزرع في الارض كلها ولا جزءا من مئة الف جزء مما ينمو من سائر الحبوب والبزور رأيت ان عالم النبات وحده يذهل العقول حتى لاترى لها مندوحة عن الاعتراف بالقوة الخالقة المدبرة

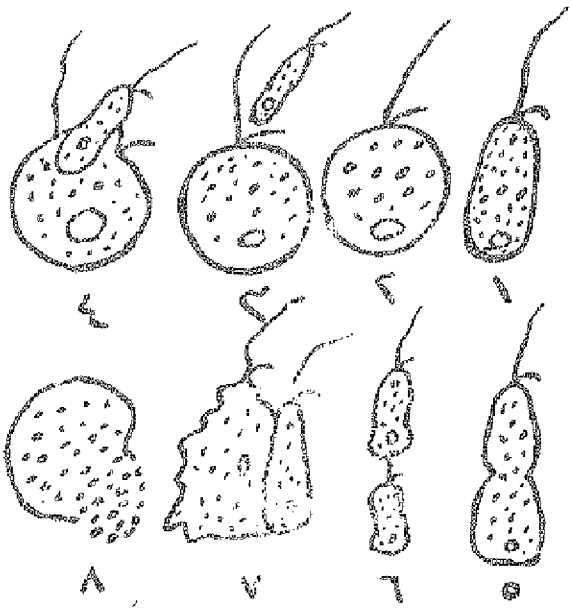

وعالم الحيوان لايقل عن عالم النبات في غرائبه . ترى في هذا الرسم حيوانا من اصغر الحيوانات الدنيا السابحة في الماء طوله جزء من ثلاثة آلاف جزء من العقدة أي لو جمع ثلاثة آلاف حيوان منه ونظمت طولا في سطر واحد مابلغ طولها أكثر من عقدة (بوصة) فلايرى الا بالميكرسكوب (المجهر) واقب بعضهم هذا الحيوان في العام الماضي ودرس طبائعه وكتب عنه يقول :- رأيته أولا كما في الشكل الاول مستطيلا وله ذنب دقيق طويل وعند مخرج هذا الذنب في بدنه ذنب آخر غليظ قصير فيسبح في الماء بتحريك هذين الذنبين وبعد ان يسبح مدة تختلف من بضع دقائق الى بضع ساعات يسكن ويصير كرويا كما ترى في الشكل الثاني ويبقى ذنبه الطويل متحركا متمعجا كالافعى وحركته تجعل أمواجا في الماء تندفع

اليه بما فيها من المكروبات. وحينما تدنو هذه المكروبات منه ينحني عليها ذنبه الطويل وتنفتح لها فمه بين الذنبين فتبتلعها . على هذه الصورة يلتقم هذا الحيوان غذاءه وقد يلتقم حيوانات صغيرة من نوعه كما ترى في الشكل الثالث والرابع فهو من الحيوانات المفترسة على صغر جسمه وحقارة قدره . وقد التقم واحد اماني خمس حيوانات صغيرة من نوعه في تسع ساعات وقبض على ثلاثة أخرى ليبتلعها لكنها تخلصت منه وهربت بعد ان كاد يفترسها . وفي باطنه سائل حامض يهضم ما يفترسه كما نهضم معدنا الطعام ثم يسكن مدة بعد ما يقتضي الغذاء الكافي ويعود جسمه مستطيلا كما كان اولا وتكثر المادة الحيوية فيه ويحدث له حينئذ امر من امرين إما ان ينشق من وسطه كما ترى في الشكل الخامس ثم ينقسم الى حيوانين مستقلين كما ترى في الشكل السادس كل منهما مثل الحيوان الاول وإما أن يتغير شكله وتضعف حركته ويأتي حيوان آخر يشبهه وهو في شكله الاول ويلتصق به كما ترى في الشكل السابع فيمتزج الحيوانان امتزاج التزاوج الحقيقي ويصيران حيوانا واحدا كرويا فيزول ذنباه ويسكن مدة طويلة ست ساعات أو اكثر ثم ينفجر من احد جوانبه وتخرج البزور منه كما ترى في الشكل الثامن وكل منها جزء من ثلاثين ألف جزء من العقدة . وهذه البزور تعوم في الماء وتنمو رويدا رويدا وبعد نحو ساعتين يتولد لكل منها ذنبان ويصير حيوانا كاملا . أي ان هذا الحيوان الذي لا يرى بالعين لصغره يولد ويتحرك ويتغذى ويتزوج ويلد حيوانات كثيرة من نوعه إما بالانقسام وإما بالولادة

وكم في مياه الارض من الملايين وملايين الملايين من مثله ؟ وكم في هوائها وترابها من مثل ذلك ؟ وكل حيوان منها يولد ويسعى ويأكل ويتغذى ويتزوج ويلد وفي بنيته من الاعضاء والآلات ما يفوق آلة الطباعة المشار اليها آنفا إتقانا واحكاما عدا ما فيها من ذرات العقل المدبر والاعصاب التي تشعر وتدير حركات الحيوانات وتكيفها حسب الاحوال التي تعرض لها حتى تهاجم وتدافع وتفترس وتهضم وتتغذى وتتزاوج وتتوالد

وماهي هذه الحيوانات الميكروسكوبية بالنسبة الى الحيوانات الكبيرة بالنسبة الى الاسماك والطيور والزحافات والى الحيوانات العليا كالفهر والاسد والفرس والفيل

بل بالنسبة الى الانسان سيد المخلوقات في هذه الارض ؟ فهل يعقل ان ليس في الكون قوة خالقة مدبرة أوجدت هذه الكائنات أو أوجدت القوى التي توجدها وتدبرها وتدير حركاتها ؟ ؟

هذه هي بعض الآيات البينات التي لا يخفى على الانسان عنها وعن ماتدل عليه الا اذا تكلف الاغضاء تكلفا أو كان خاملا لا يفكر ولا يقيس ولا يستنتج اه

(المنار) رأينا ان نعيد هنا ما كنا كتبناه في قوله تعالى « تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الانهار » في معنى ماجاء في تعليق المتعطف عن غرور الكفر وافساده للعمران ، وبيان ان الايمان بالله تعالى لا يكفي لحفظ العمران من افساد الكفر حتى يضم اليه الايمان بالوحي والرسل عليهم الصلاة والسلام وهو الاستاذ الامام : طاعة الرسول هي طاعة الله بعينها لانه انما يأمرنا بما يوحيه اليه الله من مصالحنا التي فيها سعادتنا في الدنيا والآخرة وانما يذكر الرسول مع طاعة الله لان من الناس من كانوا يعتقدون قبل اليهودية و بعدها وكذلك بعد الاسلام الى اليوم ان الانسان يمكن أن يستغني بعقله وعلمه عن الوحي ، يقول أحدهم انني أعتقد أن هناك عالما صانعا عليما حكيما وأعمل بعد ذلك بما يصل اليه عقلي من الخير واجتناب الشر وهذا خطأ من الانسان ولو صح ذلك لما كان في حاجة الى الرسل وقد تقدم في تفسير سورة الفاتحة ان الانسان محتاج بطبيعته النوعية الى هداية الدين وانها هي الهداية الرابعة التي وهبها الله للانسان بعد هداية الحواس والوجدان والعقل فلم يكن العقل في عصر من عصوره كافيا لهداية أمة من أممه ومرقيا له بدون معرفة الدين

أقول يرد على هذا من جانب المرتابين والملاحدة : اننا نرى كثيرا من أفراد الناس لا يدينون بدين وهم في درجة عالية من الافكار والآداب وحسن الاعمال التي تنفعهم وتنفع الناس حتى ان العاقل المجرد عن التعصب الديني يتمنى لو كان الناس كلهم مثله بل يتمنى كثير من الفلاسفة لجعل الامم مثل هؤلاء الافراد في آدابهم وارتقائهم . وأجيب عن هذا (أولا) بأن الكلام في هداية الجماعات من البشر كالشعوب والقبائل والامم الذين يتحقق بارتقائهم معنى الانسانية في الحياة الاجتماعية سواء كانت بدوية أو مدنية وقد علمنا التاريخ انه لم تقم مدنية في الارض من المدنيات

التي وعاها وعرفها إلا على أساس الدين حتى مدنيات الامم الوثنية كقدماء المصريين والكلدانيين واليونانيين ، وعلمنا القرآن انه مامن أمة إلا وقد خلا فيها نذير مرسل من الله عز وجل لهدايتها فنحن بهذا نرى ان تلك الديانات الوثنية كان لها أصل الهي ثم سرت الوثنية الى أهلها حتى غلبت على أصلها كما سرت الى من بعدهم من أهل الديانات التي بقي أصلها كله أو بعضه على سبيل القطع أو على سبيل الظن . وليس للبشر ديانة يحفظ التاريخ أصلها محفوظا تاما الا الديانة الاسلامية وهو مع ذلك قد دون في أسفاره كيفية سريان الوثنية الجلية أو الخفية الى كثير من المنتسبين اليها كالنصيرية وسائر الباطنية وغيرهم ممن غلب عليهم التأويل أو الجهل حتى أنه يوجد في هذا العصر من المنتمين الى الاسلام من لا يعرفون من أحكامه الظاهرة غير قليل مما يخالفون به جيرانهم كجواز أكل لحم البقر في الاطراف الشاسعة من الهند وكيفية الزواج ودفن الموتى في بعض بلاد روسيا وغيرها !! ، فمن علم هذا لا يستبعد تحول الديانات الالهية القديمة الى الوثنية

فاتباع الرسل وهداية الدين أساس كل مدنية لان الارتقاء المعنوي هو الذي يبعث على الارتقاء المادي وهانحن أولاء نقرأ في كلام شيخ الفلاسفة الاجتماعيين في هذا العصر (هربرت سبنسر) ان آداب الامم وفضائلها التي هي قوام مدنيتها مستندة كلها الى الدين وقائمة على أساسه وان بعض العلماء يحاولون تحويلها عن أساس الدين و بناءها على أساس العلم والعقل وان الامم التي يجري فيها هذا التحويل لا بد ان تقع في طور التحويل في فوضى أدبية لا تعرف عاقبتها ولا يحدد ضررها . هذا معنى كلامه في بعض كتبه وقد قال هو للاستاذ الامام في حديث له معه : ان الفضيلة قد اعتلت في الامة الانكليزية وضعفت في هذه السنين الاخيرة من حيث قوي فيها الطمع المادي . ونحن نعلم أن الامة الانكليزية من أشد أمم أوربا تمسكا بالدين مع كون مدنيتها أثبت وقدمها أعم لأن الدين قوام المدنية بما فيه من روح الفضائل والآداب على أن المدنية الاوربية بعيدة عن روح الديانة المسيحية وهو الزهد في المال والسلطان وزينة الدنيا ، فلولا غلبة بعض آداب الانجيل على تلك الامم لاسرفوا في مدنيتهم المادية اسرافا غير مقترن بشيء من البر وعمل الخير واذا لبادت

مدنيتهم . ربما . ومن يقل انه سيكون أبعدها عن الدين أقربها الى السقوط والهلاك لا يكون مفتاتا في الحكم ولا بعيدا عن قواعد علم الاجتماع فيه . فحاصل هذا الجواب الاول عن ذلك الايراد أن وجود أفراد من الفضلاء غير المتدينين لا ينقض ما قاله الاستاذ الامام من كون الدين هو الهداية الرابعة لنوع الانسان التي تسوقه الى كماله المدني في الدنيا كما تسوقه الى سعادة الآخرة

وثانيا انه لا يمكن الجزم بأن فلانا الملحد الذي تراه عالي الافكار والآداب قد نشأ على الالحاد وتربى عليه من صغره حتى يقال انه قد استغنى في ذلك عن الدين لاننا لا نعرف أمة من الامم تربي أولادها على الالحاد واننا نعرف بعض هؤلاء الملحدين الذين يعدون في مقدمة المرتقين بين قومهم ونعلم أنهم كانوا في نشأتهم الاولى من أشد الناس تدينا واتباعا لآداب دينهم وفضائله ثم طرأ عليهم الالحاد في الكبر بعد الخوض في الفلسفة التي تناقض بعض أصول ذلك الدين الذي نشأوا عليه ، والفلسفة قد تغير بعض عقائد الانسان وآرائه ولكن لا يوجد فيها ما يقبح له الفضائل والآداب الدينية ، أو يذهب بملكاته واخلاقه الراسخة كلها . وانما يسطو الالحاد على بعض آداب الدين كالقناعة بالمال الحلال فيزين لصاحبه ان يستكثر من المال ولو من الحرام كأكل حقوق الناس والقمار بشرط ان يتقي ما يجعله حقيرا بين من يعيش معهم أو يلقيه في السجن وكالعفة في الشهوات فيبيح له من الفواحش ما لا يخل بالشرط المذكور آنفا هذا اذا كان راقيا في أفكاره وآدابه ، وأما غير الراقين منهم فهم الذين لا يصدهم عن الفساد في الارض واهلاك الحرث والنسل الا القوة القاهرة ولولا أن دول أوربا قد نظمت فرق المحافظين على الحقوق من الشحنة والشرطة (البوليس والضابطة) أتم تنظيم وجعلت الجيوش المنظمة عونا لها عند الحاجة لما حفظ لأحد عندها عرض ولا مال ، ولعمت بلادها الفوضى والاختلال ، ولقد كانت الحقوق والاعراض محفوظة في الامم من غير وجود هذه القوى المنظمة أيام كان الدين مرعيا في الآداب والاحكام . فتبين بهذا ان طاعة الله ورسوله لا بد منها لسعادة الدنيا ، على ان السياق هنا قد جاء لما يتعلق بالسعادة الدائمة في الحياة الاخرى